مناضلان وقديسان يمضيان مجروحين بالوطن:

الهلالي سليل الارستقراطية يخرج على سيف الأب وأحمد عبدالله يشعل الجامعة ويقود أكبر الحركات الطلابية في تاريخ مصر

القاهرة ـ «القدس العربي»:

من: محمود قرني:

فقدت الحركة السياسية المصرية خلال شهر حزيران (يونيو) اثنين من أخلص رموزها، هما المناضل اليساري وأحد أعلام المحاماة أحمد نبيل الهلالي المولود في عام 1928 والمناضل ذو الميول القومية الناصرية أحمد عبدالله رزة الذي ظل واحدا من ألمع رموز الحركة الطلابية منذ بداية السبعينيات من القرن الماضي.

لقد اجتمع الموت على فارسين في شهر قاس هو بالنسبة لمصر والوطن العربي تذكير بهزيمة مفزعة ما زالت جنايتها على الشعب العربي ماثلة وجاسمة بظلال كئيبة.

أما اللافت في أمر هذا الرحيل فيتمثل في ذلك الإجماع منقطع النظير على اضفاء مسحة ليست قليلة من القداسة على شخصي الراحلين، وقد سيطر هذا الشعور على جميع من تناولوا هذا الرحيل رغم اختلاف مشارب الكاتبين وتباعد أيديولوجياتهم.

وليس من أسباب ـ على أي نحو ـ تدفعنا للانتقاص من قدر الراحلين، ولا من صدق الكاتبين، بل ربما كان السؤال البريء يدور حول أسباب هذا الإجماع، وهذه المشايعة الواسعة التي تعبر أول ما تعبر عن الكثير من الشفافية والصدق ونشدان الأمل في المستقبل عبر تمثل هذه النماذج الانسانية الفذة التي قل أن يجود الواقع بمثلها.

وربما وجد الواقع السياسي والثقافي ضالته في الاحتفاء بنموذجين تطهيريين على مستوى السلوك العام والشامل الذي بات منهاجا يوميا للدولة، وكذلك رد على التجريف الذي شنته الدولة العسكرية على البنية المجتمعية المنتهية إلى تصعيد غير الأكفاء من أهل الحظوة والنفاق.

وليس غريبا على واحد كنبيل الهلالي أن ينال هذا الاستحقاق والاجماع من كافة القوى السياسية فالرجل سليل الارستقراطية المصرية انتهى بمعتقداته الى السجن والقمع والتشريد والاعتقال، وظلت مواقفه السياسية المبدئية والجذرية من قضايا أمته تاجا على رؤوس التيارات التي ينتمي إليها سواء كان ذلك فيما يتعلق بموقفه من الصهيونية أو الصراع العربي الاسرائيلي أو ثورة يوليو أو نظام القمع الحالي، ويعترف الهلالي بأنه ورث الكثير من منظومته القيمية عن والده الراحل «أحمد نجيب الهلالي باشا» مؤسس أسرة الهلالي باشا الوفدي القديم الذي خرج فيما بعد على الوفد.

وأصبح من أنصار الملك فاروق وكانت تربطه علاقات ودية مع الولايات المتحدة وقد تولى أحمد نجيب الهلالي رئاسة الوزارة مرتين، أما الابن الذي ميزه العقوق لاتجاه الأسرة، فقد ظل يساريا مخلصا وظل على طرفي نقيض مع والده.

تزوج الهلالي من إحدى رفيقاته من صفوف اليسار وقد حاول والده أن يحرمه من الميراث لكنه لم يفعل، وقد انضم للتنظيم الطليعي في إحدى فترات حياته ثم انفصل عنه وهو من كبار المدافعين عن حقوق العمال وحقوق الشعب الفلسطيني، وحتى وفاته كان مكتبه موئلا حقيقيا لكل العمال المصريين الذين حاق بهم الظلم علي يد الادارة لا سيما في سنوات الخصخصة، وكان غالبا ما يتبنى كل هذه القضايا مجانا، وكذلك هو أحد المنافسين والمدافعين الدائمين في قضايا الرأي، يشمل ذلك كافة المعتقلين من كل التيارات السياسية، حتى مع تلك التيارات التي تقف مع افكاره على طرفي نقيض.

وكان الهلالي واحدا ممن دافعوا عن استقلالية التنظيمات اليسارية عن الاتحاد السوفييتي، والتنظيمات اليسارية في البلدان الأخرى.

وقد أوجز الهلالي الكثير من أطروحاته النظرية في هذا الكتيب المهم الذي أصدرته دار ميريت قبل حوالي عامين ثم أعادت طباعته وهو «اليسار الشيوعي المفترى عليه ولعبة خلط الأوراق»، وهو كتاب يعتصر خبرات الهلالي في معظم فصوله في إماطة اللثام وإزاحة الكثير من الغبار عن حقائق مطموسة ظلت قيد اللغط والالتباس لسنوات طويلة.

ودائما ما كان الهلالي يردد أن موقف الشيوعيين من القضية الفلسطينية من أبرز مواد الحرب المعلنة ضدها، وقد كانت الحركة الشيوعية المصرية هي إحدى الحركات المتهمة بالعلاقة بالصهيونية العالمية، وكذلك بأنها نبت غريب عن التربة المصرية باعتبارها غرسا أجنبيا حسب تعبير الهلالي، الذي يستنكر أن يتم اختزال الحركة الشيوعية المصرية في شخص «هنري كورييل» رغم أن الحزب الشيوعي الأول قد تأسس في مطلع العشرينيات من القرن الماضي، بل يؤكد الهلالي ويؤكد التاريخ كذلك أن الفكر الاشتراكي في مصر ظهر منذ أواخر القرن التاسع عشر على يد مفكرين مصريين قبل انتصار الثورة البلشفية عام 1917، ويشير الهلالي إلى أن سلامة موسى أصدر عام 1913 كتابه «الاشتراكية» تعريفا بهذا المذهب ودفاعا عنه، وفي عام 1915 نشر المفكر المصري مصطفى حسين المنصوري كتابه «تاريخ المذاهب الاشتراكية»، كما يؤكد الهلالي على الدور الطليعي الذي لعبته الطبقة العاملة المصرية مع الفلاحين لا سيما ثورة عام 1919، ومن ثم تأسس الحزب الشيوعي المصري عام 1922 منبعثا عن الحزب الاشتراكي المصري الذي كان قد ألفه لفيف من المثقفين المصريين ووقع على برنامجه كل من المثقفين المصريين سلامة موسى والدكتور علي العناني، محمد عبدالله عنان، محمود حسني العرابي، هذا حسبما يذكر الهلالي حرفيا.

ورغم انه ينفي أية تواطؤات للحركة الشيوعية المصرية مع الصهيونية إلا انه يدافع دفاعا مستميتا عن الاعضاء اليهود من الكوادر الشيوعية من أصل مصري مثل يوسف درويش الذي رحل قبل الهلالي بأيام قلائل، وريمون دويك، وأحمد صادق سعد، وشحاتة هارون.

ويستند الهلالي في موقفه على ضرورة بل حتمية الفصل بين اليهودية والصهيونية على المرجعية الماركسية اللينينية، حيث ينقل عن ماركس من مقاله الشهير «المسألة اليهودية »قوله: «التحرر الاجتماعي اليهودي يكمن في تحرير المجتمع من اليهودية».

كما ينقل عن لينين هجومه اللاذع على الصهيونية ونقده خرافة الأمة اليهودية العالمية عندما يقول: إن كانت فكرة ان اليهود أمة منفصلة لا تقوم على اساس علمي، فهي ايضا فكرة رجعية سياسيا، والأدلة العلمية على ذلك يقدمها التاريخ القريب والحقائق السياسية الراهنة.

ومن هذا المنطلق يرفض الهلالي أفكار هنري كورييل المنشورة في كتابه الشهير «من اجل سلام عادل في الشرق الأوسط» لأنه كان يرى أن الكتاب فيه تجن ظاهر على الحركة الشيوعية المصرية من ناحية ومن ناحية اخرى لأن افكاره تتضمن فكرا صهيونيا لم يصدر عن كورييل بوصفه قيادة تنظيمية في أي تنظيم شيوعي مصري، ولم يحدث أن تبنى هذه الافكار أي تنظيم شيوعي داخل مصر.

ورغم هذه المواقف الناصعة التي ميزت تاريخ الحركة الشيوعية المصرية وعلى رأسها نبيل الهلالي إلا أن الكارثة الحقيقية التي فتحت طاقة الانحدار على معظم هذه التنظيمات كان قرار حل الحزب الشيوعي في عام 1964 بعد الاتفاق مع نظام ثورة يوليو، وهو ما أدى فيما بعد إلى انخراط العديد من رموز التيار في صفوف السلطة، وكانت الصفقة التي قاربت بين الفصائل الاشتراكية والناصرية، لذلك كان قرار الحل يزعم لنفسه أنه بداية الطريق إلى تحويل الدولة من داخلها إلى دولة شيوعية، وقد تبنى حزب التجمع الذي جمع فصائل اليسار والقوميين منذ إنشائه رسميا في عام 1976 هذه السياسة وقد اختلف الهلالي مع الحزب وقياداته منذ بداية انشائه ورفض الانضواء تحت لوائه، رغم انه بقي على علاقات ودية مع معظم رفاقه القدامى، وقد كانت السياسة التي اعتمدها الحزب منذ انشائه وحتى الآن سببا مباشرا في تآكل رصيده في الشارع المصري تآكلا شبه مطلق وأصبح الآن يقف ضمن الهياكل الحزبية الكرتونية التي تلعب دورا مؤكدا لصالح الدولة بزعم ان أية رهانات اخرى سوف تسلم البلاد إلى الاسلاميين لا سيما حركة الاخوان التي يناصبها رفعت السعيد رئيس الحزب عداء فائضا وغير مفهوم حتى لدى كثيرين ممن كانوا في الماضي يتمنون موقفه.

وكان نأي نبيل الهلالي عن هذه الأجواء يعني مزيدا من المصداقية التي كللت مسيرته كلها، غير أن لجوئه إلى العمل في خلايا سرية في صفوف ما يسمى بحزب «الشعب» غير الجماهيري، وإن أكد هذه المصداقية إلا أنه ساهم في عزلته، حيث تبتدي خطابات كافة الفصائل اليسارية عاجزة عن خلق صيغة تخاطب عبرها الطبقات المعنية لا سيما الطبقة العاملة.

لقد رحل الهلالي حزينا آسفاً على الحقيقة المرة التي آل إليها وضع الفصائل اليسارية الضئيلة والمتصارعة وعلى حال الدولة التي كانت موعودة بالرفاه والعدل الاجتماعي.

ولا أظن أن الهلالي الذي كرس حياته لتأصيل منظومة من القيم الرفيعة إلا أستاذا ورائدا ومعلماً تحتاج إليه الحركة السياسية بكل طوائفها، وتحتاج دائما الى تمثل تراثه العبق المثير للتقدير والاحترام.

أما الراحل «أحمد عبدالله رزة» الذي قضى عن عمر يناهز الخمسين عاما بقليل، فلم يكن أحسن حظا، هذا الفتى النحيل الذي يضج بالوسامة يظل علامة فارقة على تاريخ الحركة الطلابية منذ مطالع السبعينيات وحتى ترؤسه للجنة الطلابية العليا بجامعة القاهرة، تلك الحركة التي تبنت نضالات الطلبة حتى انتفاضة كانون الثاني (يناير) 1977.

كان أحمد عبدالله ينحدر من أسرة متوسطة تسكن في عين الصيرة بمنطقة مصر القديمة، وقاد طيلة حياته نضالات المنطقة التي عاش فيها، وبعد ان تخرج بتقدير امتياز حرمته الدولة من التعيين في الجامعة فسافر على نفقته الى لندن وقبل العمل في أعمال بسيطة حتى يستطيع الحصول على الدكتوراه وقد حصل عليها بالفعل من جامعة «كامبردج» في موضوع «الحركة الطلابية في مصر» ورفض العمل في الجامعة التي تخرج منها وفضل العودة إلى الوطن، وأنشأ مركز الجيل في المنطقة التي ولد فيها، وترشح في انتخابات البرلمان لكنه فشل بسبب المناخات السيئة التي تشيعها السلطة في أجواء الانتخابات، وقد كان أحمد عبدالله، الذي كان يهرب دائما من ضجيج الإعلام، واحدا من أبرز منظري وقادة حركة «كفاية» وكان غريبا أن يكتب واحد مثل محمد السيد سعيد عن رفيقه أحمد عبدالله أنه كان أحد الذين علموه، رغم اعترافه بأن هذا التعليم لم يكن له دلالة مباشرة لتقارب السن بينهما بل هما من أبناء جيل واحد، لكن خلاصة ما يقوله السعيد ان أحمد عبدالله مثله مثل الهلالي ظل طاقة خلاقة تعرف كيف تمنح دائما. انها كائنات ولدها العطاء وولدت العطاء وهكذا احتمت المعرفة العلمية بالمعرفة الانسانية فحفظتها في قلوب وعقول تقدرها عين التقدير، وليس من طاقة اخرى على المستقبل سوى استعادة النموذج للاحتفاء به، وانبعاثه كطائر الفينيق الذي يستعيد نفسه من الرماد.

قص

برهان الخطيب*

آخ مارلين مونرو..

فصل من رواية جديدة معدة للنشر

■ المرة الأخيرة فككت الضماد عن رأس حميد، أشار إلى بدلته المعلقة بمشجب الحائط المقابل:

ـ لو صرف ما في ذاك الجيب نذهب إلى بنك، أرسل طلب سحب من حسابي برة، علينا الاحتفال بهذه المناسبة.

وضعت الضماد جانبا. لا زال ما في جيبك مكانه، ولا تذكر كلمة بنك مرة أخرى، إذا سمعتك الحيطان خرج منها الملثمون وأخذوك إلى مخابئهم، محفورة في عمق كل حيطان بغداد اليوم، لا يطلقون سراحك حتى تدفع الفدية. سمعتَ الراديو؟

استطاع تحريك رأسه، بل والمزاح، جعلوا سعرهم مناسبا لمغترب عائد من خارج الديار، فصل الرأس أو خمسون ألف دولار، بكيفك الطماطة والخيار، ربما رفعوا سعرهم لو عرفوا رأس كردي وقع بين أيديهم، هكذا يكف جهلة في الأقل عن قول رأسه فارغة.

ضحكت، لن يصلوا إليك وعربي جوارك، باب الشقة لا افتحه، منطقتنا محروسة جيدا، عيني ساهرة.

انتظرت فرصة لفتح موضوع عربون الشقة، لا يمكن السكوت إلى الأبد، للرجل حق رغم كل شيء في غرفته على الأقل، أو عليّ تعويضه بطريقة، التفاهم حول الموضوع وتسويته راحة بال لكلينا، لم أجد الوقت المناسب، ولا هو نوّه. إحراج لو سألته حينذاك، لكان في سؤالي استغلال، كان تحت رعايتي في المقابل سيرفض طبعا قبول تعويض مني لو صدق حدسي، خاصة تكلم عن بنك وسحب، أي أنه في كفاية، لن يسمح لنفسه هلس صديق هو في رعايته، متى أكلمه وكيف نطلع من درب الصد ما رد، لم أعلم، تمنيت لو سألني، لعله انتظر مثلي، لحظة مناسبة لا تجرح مثخنا بجراح، أو أنه وارى نيته عزم وضع اليد على المسألة الحساسة حين يسترجع قوته. بلى، عندي وثيقة تثبت تنازل صاحبة الشقة لي ولزوجتي، أضطر لعرضها عليه في يوم قريب أو بعيد، بدأ ذلك يقلقني.

فكرت في دعوته للتمشي جوار النهر، مرافقته وربما رمي الشص، لعلنا نتكلم في هذا وذاك، لكن خفت عودة صائدي البشر وتكرار المحاولة به.

مرر حميد أصابعه على آثار دمائه اليابسة في الضماد. لكنهم وصلوا إليّ غفلة، مَن هم، كيف عرفوني، لماذا هنا لا عند بيت أخي، لماذا لم أُنذر أو أهدد بداية لو اعتبروني كبقية الخلق المتعاون مع المحتل. لم أتعاون وضُربت، مَن الجاني، ما رسالته، وإلى مَن؟ لا يمكن أصبحت جميع الأفعال مجانية، القتل سهلا إلى هذا الحد. ما العجب والقانون غائب؟

طاف حميد أرجاء الشقة، صاحيا، متوازنا، مر بالمطبخ، قال سوف يحضر باميا، تذكّر موسمها مضى، لا بأس الباميا اليابسة طيبة أيضا، أنزل إلى السعدون لشرائها بنفسي، مع هذه اللحية يظنني المتطرفون منهم، ليتني أتجنب شرهم لو تكررت المحاولة.

طفت معه في سياحة نقاهة شارع السعدون، تمشينا بطيئا، تفرجنا على معروضات المحلات، باعة الأرصفة، ود لو جلس قليلا في مقهى كيت كات. من تلفته وحركة عينيه السريعة وشيء غير مفهوم ظل يبدو غريبا عن المدينة. تمنى لو خرج وحده المرة التالية. نصحته لا يتعجل ولا يفتعل الشفاء. كل شيء في أوانه. ألم تضجر مني حتى الآن؟ سألني متنهدا، قلت: سوف أرميك إلى الشارع حين أضجر منك. ندمت على مزاحي الخشن. ماذا لو تصور فيها انكاراً لحقه، المعنوي والأخلاقي في الأقل، بالشقة؟ الغريب، طرق أحدهم بابنا ذلك اليوم، ظهر في مدخل الشقة رجل أجنبي، حكما بمظهره، ببنطلون خاكي وقميص أزرق نظيف، على شبه بنا عند تدقيق النظر، لحية مشذبة، نظارة وابتسامة وديعة، رشيق القامة. قدم نفسه باسم داوود، سألني في حياء بانكليزية مطعمة بكلمات عربية لو سمحت له بتصوير النهر، من شرفة شقتنا. كان حميد جالسا في الشرفة، لم يلتفت نحونا، استغربت الطلب، قلت للشاب الأجنبي بإنكليزية شكسبيرية تفضل ابني، لكن شارع أبي نواس يتسع لتصوير فيلم قادسية أخرى.

أظهر داوود صورة قديمة قائلا بأدب جم، هذه مأخوذة في الخمسينيات من هذه الشرفة، أردت التقاط الآن صورة جديدة، من نفس المكان لنفس المشهد، لغرض المقارنة وتبيان كيف تغيرت بغداد لمشاهد تلفزيوننا السويدي خلال نصف قرن. سألته طبعا من أين لك هذه الصورة؟ نظر إلي مبتسما، سألني بدوره: لم تخمن؟ صمت طويلا، عرفت من أين له تلك الصورة، وربما خمنت ما دار في رأسه. دعوته ليجلس: تفضل ابني، هل تحب الشاي البارد كما عندكم هناك أم علبة بيرة أو كولا. لم يشأ أن يزعجني. مزحت لا بد لضيف الشرب ما دام جاء إلى دراكولا.

ـ شكرا. نيتي لا ازعجكم. ينتظرونني في الشارع.

ـ صلة لك إذن مع مدام سارة أو مصدر الصورة جهة أخرى؟

ـ هي قريبتي من جهة الأب حقيقة ولها رسائل قديمة معه.

ـ ما كتبت في إحداها باعت شقتها هذه لي؟

التفت حميد نحونا. أهمل داوود كاميراه وحك رأسه.

ـ عرفنا كانت تريد بيعها يوم أرادت الهجرة. الحقيقة الصورة تهمني.

ـ ودي لو تشرب شيئا قبل أن أريك صورة أخرى مهمة.

ـ اعتبرني شربت الشاي والكولا معا. انسحب لو ضايقتك.

ـ بالعكس، مرحبا بك، الكلام معك ممتع، تفضل الشرفة أمامك صوّر.

صافح حميد داوود حين أصبح في الشرفة، تكلما بالسويدية، دهشت، سألتهما إن كانا يعرفان بعضهما بعضا من قبل أن يلتقيا. حميد قال لا، الناس في السويد حتى الغرباء يسلمون بعضهم على البعض حين تلتقي عيونهم في طريق. سألته ماذا قلت ولماذا ضحك داوود. رد حميد سألني عن الضماد قلت له جرحتني فكرة.

تركتهما يتكلمان وداوود يصور، دخلت مرسمي وأخرجت من الوسادة نسخة وثيقة بيع الشقة، عدت معها إلى داوود:

ـ تعرف بعض العربية سمعت، اقرأ رجاء وقل هل فهمت شيئا؟

تطلع داوود إلى الوثيقة، فهم في ثوان محتواها دون أن يقرأها ربما، احمر وجهه، قال بنبرة اعتذار:

ـ لا يا عزيزي، لماذا فعلت هذا، أنا لم آت إلى هنا لأسألك عن شيء.

ـ الاطلاع مفيد على أي حال، ربما بددت الوثيقة بعض الظن.

أعادها إليّ واهتم بإعادة كاميراه إلى جيبه، لوح بيده لشخص منتظر على رصيف الشارع، همّ بمغادرة الشقة، قلت لأطيب خاطره:

ـ كانت الراحلة من ألطف وأذكى الناس الذين قابلتهم.

ـ أنا متأكد كانت هي لتقول نفس الشيء عنك لو كانت هنا الآن.

ـ لماذا لا تبقى معنا اليوم أو تفضل غدا لتناول الغداء أو العشاء معنا.

ـ شكرا حقا، وقتي لا يسمح للأسف، ربما في سفرتي القادمة.

ـ أنتم هنا في بعثة تلفزيونية أرى ولا تخاف الخطف، أنت شجاع.

ـ لا بد من العمل ومعي حراس رغم أنه لا خوف على سويديين.

ـ معلوم، شيخ الإرهابيين امتدحكم على حيادكم.

ـ نحن لا نوافق أمريكا على كل ما تقوم به.

ـ ستوب رجاء، قانون هذه الشقة لا كلام في السياسة.

ـ ومسموح في التجارة؟

ـ أي شيء إلاّ السياسة.

ـ طيب، لو فكرت في بيع هذه الشقة أدفع لك عنها المبلغ الذي تطلبه، لأقاربي البعيدين ذكريات فيها، تعلم.

ـ البابليون خولوا النهر حل بعض قضاياهم فلنذهب إليه.

ـ ماذا نفعل هناك.

ـ تترك ثمن الشقة هنا ونرتمي في النهر ونبقى فيه حتى يؤكل أحدنا فيكون للآخر الشقة والثمن، ما رأيك؟

ـ صحيح كتبوا ظهرت في النهر تماسيح لكن هذا غير مؤكد.

ـ بل مؤكد.. رأيتها بعيني.

ـ ولماذا المغامرة بالنفس ويمكنك الربح من غير مغامرة.

ـ لو أكلني تمساح تخلصت من حياتي، ولو نجوت عدلتها بالثمن.

ـ عدلها بالثمن ولا تغامر بحياتك، هكذا أفضل.

ـ لا حياة لي بعيدا عن هذا النهر الذي أكرهه.

ـ وتكرهه أيضا.

ـ نحب ونكره شخصا واحدا أحيانا. هكذا هذا النهر عندي.

ـ عدم الواقعية يعقد الحياة. يزيدها صعوبة.

ـ الواقعية تجعلها مملة.

ـ لا يوجد حل وسط؟

ـ نحن نتفاهم. عندك أفضل من هذا الحل؟

ـ أنت تمزح..

ـ ابني خرج من هذه الشقة ولم يعد إليها. كيف يكون حاله إذا عاد يوما ولم يجدني فيها. هناك كانت أرجوحته..

ـ وهنا كان يجلس جدي كل عصر.

ـ مرحبا به كل عصر هنا لو ظل حيا. أليست هذه واقعية؟

ـ ليت الجميع يتفاهمون مثلك.

ـ لو كان الجميع لطفاء مثلك تفاهم الجميع مثلي.

ـ أدرك الآن لماذا تخلت عمتنا سارة عن شقتها لك مقابل سعر رمزي.

بعد خروج داوود سألني حميد إن كنت شاهدت حقا تمساحا في دجلة، أقسمت له شاهدت على شاطئه المقابل هناك حتى جنية نسخة طبق الأصل عن مارلين مونرو، كانت تمشط شعرها بعظمة كوسج وتدهن أثداءها بزيت بابلي تحت ضوء القمر، نزلت إليها من الشقة دون صوت وما أن رأتني اقترب حتى رمت إليّ قبلة في الهواء، وانسلت إلى النهر، آخ مارلين مونرو، مَن لا يريد واحدة مستنسخة منها، ويقولون الاستنساخ حرام؟

* كاتب من العراق

شاهد عيان

شارع الأميرات وشاعرهن

خيري منصور*

■ لو عاد جبرا ابراهيم جبرا الى الحياة الان، لما تردد في كتابة مقالة من طراز مقالة تريفور موستين عن قاهرة الخمسينيات، رغم أن جبرا لم يكن مستشرقا في بغداد، بل كان جزءا عضويا من نسيجها الحي، فشارع الاميرات الذي كان جبرا يذرعه كل مساء، خصوصا في خريفه لم يعد ذلك الخيط الذهبي الذي يزنّر ارقى احياء المدينة، وقد لحق به ما لحق ببغداد بعد ان عاثت فيها دبابات هولاكو العصر فسادا لم يسلم منه المتحف والمعبد والمدرسة، وما اعادني الى ذلك الشارع الذي طالما تحولّ تحت قدميّ الى وتر مشدود، ليس مناسبة خاصة بالراحل العزيز، وجبرا لا يحتاج الى مناسبة لاستذكاره، فما من مرة نقرأ فيها نصا مترجما بلغة آسرة الا ونتذكر ما قاله عن تجربته في ترجمة شكسبير عندما اعترف بأنه يتنفس من رئته، واحيانا يشمّ بأنفه، وذكريات جبرا التي توزعت بين البئر الاولى وشارع الاميرات، وما تسرب من سيرته في اعماله القصصية والروائية، تستحق منّا قراءة ثانية لما بين سطورها، فهو شاهد حقبة خضراء رغم أنه قادم من حيّ مقدسي مضرّج بدم رسولي، وفي ذروة التراجيديا الفلسطينية، ورغم كل ما ينسب الى جبرا من توصيفات تحاصره في دائرة المثقف الليبرالي الا ان راديكاليته التي لم تكن سياسية او ايديولوجية تمحورت حول رهانه الحاسم على مشروع ثقافي، لهذا لم يتردد في اعادة اكتشاف نزار قباني بعد عقود من العزوف عن قراءته، وهذا ما تكرر ايضا بالنسبة للجواهري الذي كان يقف في الستينيات من القرن الماضي على الضفة الاخرى، مقابل الحداثة التي كان يبشّر بها جبرا، ولأسباب منها ما هو موضوعي، ومنها ما يتعلّق بنوازع شخصية. اعدت قراءة جبرا وأنا اتعرّف على الامكنة التي كتب عنها، بدءاً من روايته «صيّادون في شارع ضيّق» التي كتبها بالانجليزية وترجمت الى العربية.

من حي المنصور ببغداد، الى شارع الرشيد وما تبقى من ظلال فندق السندباد، ثمة أصداء ما تزال تتردد في جنبات تلك الامكنة، فالأميرات رحلن عن عالمنا، وكذلك نساء جبرا على اختلاف اسمائهن ومواقعهن، لكن الحفيف الحريري مكث في المكان، وحين كنت أمشي معه في شارع الاميرات او في اي مكان آخر من بغداد، كان يستغرق في مقارنات لا آخر لها بين زمانين، بحيث كنت أشعر بأن هناك بغداد أخرى لا اعرفها مهرت ذاكرته كالوشم.

***

ما قرأته في شارع الاميرات سمعته ذات شتاء من جبرا ولميعة في بيتهما الدافىء الذي تغطي جدرانه اللوحات، وكان يصعب عليّ ان اصدق بأن لميعة العسكري التي كانت تجلس على كرسي طبيّ بعد ان تعرضت ساقها للكسر هي تلك التي رسمها جبرا في مذكراته، فالزمن كما وصفه جبرا نقلا عن هاردي يفعل فعله بنا، ويحولّنا الى سيوف مخبوءة في أغماد مهترئة، حيث الروّح تبقى على مضائها والجسد يخبو، وتنتاب غابيته نوبة خريفية لا سبيل الى الفكاك منها، واذكر ان فنانا عراقيا رسم صورة (بورتريه) لجبرا وهو في السبعين كان يبدو من خلالها في الثلاثين، وسماها «صورة الفنان شابا» على غرار تلك الرواية التي حملت هذا العنوان لجيمس جويس،

ولسبب ما عندما التقيت بجبرا قبل بضعة أشهر من رحيله المفاجىء اعترفت له بخديعة بريئة كنت قد مارستها معه في الرباط المغربية، عندما كلفّت مضيفنا ان يبتكر خطأ في موعد السفر كي نبقى ثلاثة أيام اخرى، وكان صديقه الذي تقاسمنا معه العشاء الاخير نويل عبد الاحد قد التقط لنا صورة، لم أكن اتوقع بأنها وداعية، تماما كذلك الاعتراف المتأخر بالخديعة التي صفح جبرا عني بعد ان تأكد من سببها وبراءتها وجنونها!

***

دخلت غرفة نومه لأول مرة بعد شهور من رحيل لميعة، وربما كنت الزائر الوحيد الذي شاهد تلك اللوحة العارية على الجدار، وان كنت قد اشحت ببصري عنها، كان شرشف السرير بلا أية تجاعيد، لأن جبرا لم ينم عليه بعد رحيل لميعة، اما اهداب الشرشف الحريرية فأذكر ان جبرا قال بصوت دامع... يقطر منها النعاس.. فالموت نوم آخر، لا تقاطعه الكوابيس ولا يقترن به الشخير!

ومن المعروف ان زواج جبرا من لميعة لم يكن تقليديا، فهو مسيحي المولد وهي مسلمة وهو فلسطيني لاجىء وهي من طبقة ثرية وذات امتيازات، لهذا يصف جبرا تلك العلاقة في كتابه شارع الاميرات كما لو أنها تندرج في التراث الرومانسي، فالسيف الذي وضعته الاسطورة بين تريستاو وايزولدة والعقبات التي وضعتها القبيلة بين قيس وليلى كان لهما معادل آخر بالنسبة لجبرا ولميعة، وهذا ما يحوّل حالة العشق الممنوع الى نصّ ممنوع أيضا، فالشاب القادم للتو من فلسطين مرورا ببريطانيا كان جامحا، مما دفع مدرّسه الانكليزي الى ان يطلب منه التريث والهدوء، وأن يتحول من جواد عربي جامح الى جواد انكليزي بارد!

وقد لعبت تلك الحكاية دورا في تصنيف جبرا كمثقف بالغ المرونة، وسريع التأقلم، ليس فقط لأنه أعلن اسلامه، بل لأنه عمل في مؤسسات كان لليسار العربي موقف بائن منها، كشركة النفط والمجلة التي كانت تصدرها اضافة الى علاقته بالشاعر ستيفن سبندر ومجلة «حوار» التي افتُضحت علاقتها بالمخابرات الامريكية عندما كانت الحرب الباردة في ربيعها.

***

كتب الراحل عبد الرحمن منيف، صديق جبرا العريق وشريكه في تأليف رواية «عالم بلا خرائط»: ان الطيف الادبي الذي رسمه جبرا لتلك المرحلة، اي مطلع الخمسينات من القرن الماضي شديد الدلالة ولولا الاشارات والاسماء والوقائع والانجازات قد لا نستطيع استيعاب التطورات اللاحقة، لهذا تعتبر شهادة جبرا أساسية خاصة وأن هناك محاولات لإعادة قراءة المرحلة وفقا لأهواء ورغبات مختلفة عما كانته فعلاً...

ان هذا الذي يقوله منيف هو بيت القصيد، فجبرا يكتب عن عام 1951 وهو عام حاسم في حياته وتجربته ما يقف على النقيض مما كتبه ساسة، وحزبيون في مذكراته، ومنهم من يرى في جبرا كاتبا يحاول الافلات من شرطه الطبقي، وبالتالي من قراءة الواقع سياسيا.

وأذكر ان الصديق الراحل غالب هلسا كان قد كتب عن جبرا أثناء وجودنا معا في بغداد مقالة تجسد الافتراق بين رؤيتين للواقع والأدب، والموقف، وكان جبرا كعادته يقول بأنه لا يقرأ نقدا ايديولوجيا، ولديه من المهارة في شمّ رائحة هذا النقد منذ السطر الاول، لهذا أصرّ جبرا حتى النهاية على انه لم يقرأ ما كتبه غالب، وان كنت اشك لأسباب انسانية بأن الفضول كان قد دفع جبرا لتغيير رأيه وقراءة ما لا يروق له ان يقرأه!

ان اللافت في سيرة جبرا رغم تقطع كتابتها وتباعد الازمنة هو ذلك النمط من النساء اللواتي ينتمين الى طبقة محددة، فهن متعلمات ومنهن من ذهبن الى الغرب في الوقت الذي لم تغادر فيه نساء عربيات اخريات قراهن او حتى بيوتهن الاشبه ببيوت الدمية «الإبسنية»!

ولا أظن ان ما دفع جبرا الى التلصص على هذه الطبقة هو الهجس البلزاكي الشهير، الذي عبرّ به الروائي الفرنسي عن اهم ما يشغل الكاتب في زمانه، لكن التلصص عن بعد تحول بالنسبة لجبرا الى انتساب مباشر للنادي الاجتماعي ذي الملامح البرجوازية، ولا يصح على الاطلاق ان يختزل كاتب ما الى بعد واحد، ولو فعل جبرا ما فعله روائيون عرب آخرون، عندما جرجروا شخوصهم من أندية العواصم الراقية الى المخيّم بحثا عن توازن وهمي لفقد الكثير من انجازه...

وقد رأى بعض نقاد جبرا ان روايته «السفينة» هي نموذج للمكان المحايد، حيث يكون مسرح الرواية عرض البحر، ليس لأنه فلسطيني يعيش خارج المكان، بل لكي لا يصطبغ شخوصه بالأمكنة وبدلالاتها السياسية!

ومن قدم لروايته «البحث عن وليد مسعود» باحتراز يدرأ اي التباس بين الواقع والمتخيل فاته ان المتخيلّ ليس نبتا شيطانيا، وان الخيال هو في نهاية المطاف ذاكرة اعيد انتاجها لكن وفق مهارة الراهن ومحاصيل الخبرة!

وأذكر ان طالبة مغربية صافحت جبرا أمامي وهي تقول له: كيف حالك يا استاذ مسعود...؟ وكأنها تحذف ذلك الاحتراز، وتطابق بين الرواية والسّيرة على نحو بالغ العفوية... لحظتها ضحك جبرا وقال: يبدو ان المقدمات حيلة لا تنطلي على القارىء الذكي، فهمست بأذنه: هل تجازف الآن بتحويل الرواية الى سيرة لإرضاء هذا القارئة الذكية والجميلة ؟!

***

لقد شهد جبرا اثناء حياته محاولات لتجريده من حقه في الريادة، وثمة من قالوا إن تبشيره بالحداثة كان أهم بأضعاف من نصوصه الحديثة.. لكن مثل هذا السّجال لا يليق بمنجز أدبي وفنيّ بحاجة الى اعادة كشف، فهل كان جبرا شاعرا ام روائيا ام ناقدا ام مترجما... أم كل هؤلاء ؟

سؤال مطروح على من يتعاملون الان مع تراث جبرا وقد اكتمل بموته!

فجبرا لم يكن شاعر الاميرات، حتى لو كان جارهن في ذلك الشارع الوثير، الذي تغمره رائحة الياسمين وتعشش الحمائم في صناديق بريده المهجورة!

ان الحكم بالجملة على منجز ما هو مهنة ناقد مدرسي يقيس الفضاء كله بالنافذة والمحيط بما تبلغه العين المجردة!

وقد تكون كتابات جبرا النقدية والتأملية التي تعكس تجربة معرفية بالغة الثراء بحاجة الى اعادة قراءة، بمعزل عن ذلك التصنيف الايديولوجي الذي يضيف ويحذف بساطور بروكروستي، وبرغائبية تتأسس على الإسقاط لا على الموضوعية!

* شاعر وكاتب من الاردن